International Journal of Humanities & Social Sciences
Volume (6) – OCTOBER 2018
SJIF Impact Factor 3.38
ISSN1858-838
المجلة الدولية للعلوم الانسانية والاجتماعية
العدد السادس-اكتوبر 2018

ظلال شعر المتنبي في ديوان محمد سعيد العباسي

د. الأصم بشير التوم بشير (أستاذ الأدب بجامعة الخرطوم – أستاذ مساعد) .
د. المكاشفي إبراهيم عبد الله محمد (أستاذ الأدب بجامعة الخرطوم – أستاذ مساعد)

المستخلص:

هدفت هذه الدراسة إلى الوقوف عند مواطن تأثر الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي بالشعر العربي القديم بعامة وبشعر المتنبي خاصة، وتلمس ظلال شعر المتنبي في ديوان العباسي مضموناً وشكلاً. ومن هنا تجئ أهمية الدراسة متمثلةً في كشف ارتباط العباسي بالشعر العربي في عصوره الزاهية وتأثره به وبشعرائه العظام. وقد انتهجت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. وتوصلت إلى عدد من النتائج أهمها: التقارب بين المعاني والأغراض التي طرقاها نسبة لتشابه تجربتيهما الشخصية.استعارة العباسي لكثير من ألفاظ المتنبي الشعرية وتراكيبه وقوافيه. أصالة العباسي في أخذه عن المتنبي لفظاً ومعنى وذلك من خلال تصرفه فيما أخذه وصياغته إياه بأسلوبه الخاص. إعجاب العباسي بالمتنبي وذكره لاسمه في أكثر من موضع في ديوانه.

الكلمات المفتاحية: ظلال. المتنبى . العباسى

Abstract

The study aimed at identifying the points in which the Sudanese poet Alabasi is influenced py the traditional Arab poetry in general and the poetry of Almutanabi in particular, to know the influence of Mutanabi Poetry on Alabasi,s poetry in its style and its content. And here comes the significance of the study, represented in revealing the relationship of alabasi to Arab poetry in its shining eras, and his influence py the great poeat of that era. The study adopted the descriptive analytical methodology. The study has come to a number of findings, the most important are: There is similarity in meanings and purposes of poetry between Alabassi and Almutanabi due to similarity in their personal experiences. Alabassi had borrowed many of Almutanabi, s poetie words, forms and thymes. Alabassi was distinct in making ues of the words and meanings of poetry of Almutanabi; this appears in that he formed what he had taken in his own style. Alabassi was fond of Almutanabi; he mentioned his name more than one time in his poetry book.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد. يريد الباحثان من خلال هذه الورقة أن يوردا شاهداً على أنَّ العباسيَّ كان شديد الولوع والاعتداد بالشعر العربي القديم، شديد التأثر به؛ لذلك فإنك واجدٌ في ديوانه ظلالاً لأشعار القدامَى من الشعراء، روحاً ومعنى وألفاظاً وتراكيبَ، وحتَّى لا يتشعب الحديث في هذا الشأن ويذهب في مذاهب متفرقة فقد فضَّل الباحثان قصر هذه الملاحظات في شاعر واحدٍ من شعراء العصر العباسي الذين تأثَّر بهم محمد سعيد العباسي، ذلك الشاعر هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، القائل لسيف الدولة :

أجـــزني إذا أنشدت شعـــــراً * * * بشعري أتاك المادحـــــــون مررداً[9]

ودع كلَّ صوتٍ غير صوتي فإنني* * * أنا الصائـــح المحكي والآخرُ الصدى

ولابدَّ أولاً من التعريف بحياة كلٍّ من الشاعرين للتنبيه على ما يجمع بينهما.

أولاً: المتنبِّي:

أبو الطيب أحمد الحسين الجُعفيُّ، المعروف بالمتنبي، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة، ونشأ بالشام وأقام ببادياتها،وطلب الأدب وعلم العربية، وتعاطى قرض الشعر في حداثته حتى بلغ فيه الغاية، فأنهى فيه النهاية وفاق فيه أهل عصره.[2] عُرِف والده بعَبدان السَّقَّاء، لاشتغاله بالسُقيا، وكان يذكر أنه جُعفيَّاً، غير أن المتنبي عندما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادّعى أنه علوي، ثم ادَّعى النبوة إلى أن أُشهد عليه في الشام بالتوبة وأُطلق.[2] وذكروا أنه تنبَّأ في بادية السماواة ونواحيها، إلى أن خرج إليه واليها (لؤلؤ) وقاتله وأسره وشرد من كان قد اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب، ثم حبسه حتى استتابه وأشهد عليه وأطلقه. ولحق به لقب المتنبي –مع كراهيته له– ومما يذكر أن ابن خالويه قال له يوماً – في مجلس سيف الدولة – لولا أنَّ أخي جاهلٌ لما رضي أن يُدعَى بالمتنبي، لأن

سمعنى المتنبي كاذب، ومن رضي أن يدعى بالكذب فهو جاهل، فقال له المتنبي : لست أرضى أن أدعى بذلك، وإنَّما يدعوني به من يريد الغضَّ منِّي، ولستُ أقدر على المنع.[2] وقيل لُقِّب بالمتنبي لقوله: أنا أول من تنبأ بالشعر.[6]

اتصل المتنبي بسيف الدولة الحمداني ومدحه بمديح خلده أبد الدهر، ولم يكن لسيف الدولة شأن ولا لدويلته وانتصاراته على الروم! فقربه سيف الدولة كثيراً ولكن شرف هذا القرب عاد على المتنبي وبالاً؛ إذ حسده الكثيرون من أمثال أبي فراس الحمداني و ابن خالويه النحوي وغيرهما. وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلمون بحضرته، فوقع بين المتنبي وابن خالويه النحوي كلام، فوثب ابن خالويه على المتنبي وضربه بمفتاح على وجهه فشجه، ولم يغضب له سيف الدولة ولم يستنكر ذلك؛ فخرج المتنبي مغضباً ويَمَّمَ وجهَه حِيالَ مصرَ واتَّصل بكافور الأخشيدي مادحاً له ومستعوضاً به.[6] وكان اتصال المتنبي بسيف الدولة في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، ثم فارقه ودخل مصر سنة ست وأربعين وثلاثمائة، وفي مصر وعدَه كافور بولاية بعض أعماله، ولكن لما رأى تعاليَه في شعره وسموَّه بنفسه خافه، ولما عوتب فيه قال: يا قوم من ادَّعى النبوَّة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعي الإمارة بعد كافور؟ فحسبكم.[6] وبعدها خرج المتنبي من مصر – محبطاً– لما لم يُرضِه كافورها، بل هجا كافوراً هجاءً يخلُد أبد الدهر! وكان خروجه من مصر ليلة عيد النَّحر سنةَ خمسين وثلاثمائة، ووجَّهَ كافورٌ خلفه رواحلَ إلى جهات شتَّى فلم تلحق به. وارتحل المتنبي إلى بلاد فارس، وهناك مدح عضد الدولة بن بويه الدَّيلمي، فأجزل جائزته، ولما رجع من عنده قاصداً بغداد ثم الكوفة، عرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في عدَّة من أصحابه فقتلوا المتنبي وابنه مُحَسَّداً وغلامه مفلحاً بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية.[6]

وفي سياق آخر أن المتنبي خرج من مصر، وصار إلى الكوفة واتَّصل بابن العميد فمدحه، فقيل أنَّه صار إليه منه ثلاثون ألف دينار، وقال له: تمضي إلى عضد الدولة ، فمضى من عنده إليه، فمدحه ووصله بثلاثين ألف دينار، وفارقه على أن يمضي إلى الكوفة يحمل عياله ويجيء معهم إليه، وسار حتَّى وصل النعمانية، فإذا خيلٌ كَمَنَتْ له

فصادفته، فطُعن طعنة نكس بها عن فرسه، فلما سقط إلى الأرض نزلوا فاحتزوا رأسه ذبحاً، وقتل معه ابنه وغلامه. وكان ذلك في يوم الاثنين لخمس بقين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. [14] ومما ذكر في حادث مقتله ، أنه لاذَ بالفرار هارباً حين رأى الغلبة ، فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار أبداً وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ** والسيف والرمح والقرطاس والقلم [9]

فكرَّ راجعاً حتى قُتل وكان سبب قتله هذا البيت. [6] ورغم شهرة المتنبي وإعجاب الناس وافتتانهم بشعره إلا أنه بُخِّل ! وكان معجباً بنفسه، كثير البأْوِ والتيه، فمُقِتَ لذلك. [7] وأما شاعرية المتنبي فأمر لا يختلف فيه اثنان، وقد أقرَّ له الكثيرُ من العلماء بالشعر ونقده، ومنهم من رجَّحه على أبي تمام، والقليل منهم من رجَّح أبا تمام عليه، وقال أحدهم : قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت أشتهي أن أكون قد سبقته إليها، وقصد بذلك بيتيه:

رماني الدهر بالأرزاء حتَّى ** فؤادي في غِشاءٍ من نبال [9]

وصرت إذا أصابتني سهامٌ ** تكسَّرت النِّصال على النِّصال

واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه شروحاً تربو على الأربعين، بين مطوّل ومختصِر، ولم يُفعل ذلك بديوان غيره. [6] وكان أبو العلاء المعري يتعصب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار وأبي نواس وأبي تمام، وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه، فجرى – يوماً– بحضرته ذكرُ المتنبي فتنقَّصه وجعل يتتبع عيوبه، فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشِّعر إلا قوله: *لك يا منازل في القلوب منازل[9]* لكفاه فضلاً ! فغضب المرتضى وطرده من مجلسه، وقال لمن بحضرته: أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة؟ فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها، فقيل : النقيب السيد أعرف، فقال: أراد قوله:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ** فهي الشهادةُ لي بأني كامل [9]

وحسب هذا في شاعرية المتنبي. (15)

ثانياً: محمد سعيد العبَّاسي:

محمد سعيد العباسي بن الشيخ محمد شريف نور الدائم بن الشيخ أحمد الطيب البشير، كان مولده بالكوة في رمضان سنة 1298هـ/1881م، ووالده الأستاذ محمد شريف وارث مقام الأستاذ الطيب ولد البشير العباسي رئيس الطريقة السمانية في السودان. (12)

فهو سليلُ نورِ الدائم وربيبُ السَّادةِ السمَّانية في السُّودان، درس على آبائه ، وتلقى العلوم العربية والإسلامية على الشيوخ في مصر، والتحق فترة بالمدرسة الحربية في مصر، ولكنَّه تركها، ولم يتأثر إلا بأستاذه عثمان زناتي الذي كان يدرسهم الأدب وعلوم العربية. (11). وقد أرجع بعضهم كراهية العباسي للمدرسة الحربية، ومن ثم تركها إلى حسد زملائه؛ فأساءوا إلى سمعته عندما رأوا منه الميل إلى مجالس اللهو في شبابه. وآثر العباسي العافية والنجاة بنفسه من مَغَبَّة سوء الأحدوثة خوفاً من أن يمسَّه ما يشين؛ فيُلْحِقَ به وببيته الكريم عاراً. (1) وأما علاقة العباسي بأستاذه عثمان زناتي فمردها إلى إعجاب أستاذه به؛ فهو حافظ للقرآن الكريم، مُلِمٌّ بقواعد النَّحو والعروض؛ فذانك سَبَبَا القرب والتحبُّبِ.[1] وقد ظلَّ طوال حياته وفياً لشيخه هذا، وقد رثاه رِثاءً شجيّاً حيث يقول:

فيا رحمة الله حلِّي بمصـ * رَ قبر الزناتيِّ عثمانيهْ** (11)

رعاني بإحسانه يافعـــــاً * وكم شاد بي بين أقرانيهْ**

وبعد رجوع العباسي من مصر في المرَّة الأولى اشتغل بدراسة كتب الفقه الحنفيّ على يد والده الأستاذ محمد شريف، وقد خلد هذا المعروف الجميل لوالده في أبياته:

أباً طالما أسدَى العوارف جمَّةً * إليَّ وكم بِرٍّ حباني وكمْ نُعمى** (11)

وعلِّمني كيف الوصولُ إلى العُلا * وكيف لها أسعى إماماً ومؤتمَّا**

فيا رحمة الله اغمري جَدَثاً حوى * بمَرْحَ في أحشائه الحزم والعزما**

ومما يجدر ذكره أن العباسيَّ ذهب مرَّةً ثانيةً إلى مصرَ في صُحبة والده الأستاذ محمد شريف في سنة 1324هـ، الموافق سنة 1906م، ثمَّ توفِّيَ والده بعدها سنة 1907م. [1]

هذا وقد وصف عبد المجيد عابدين شخصية العباسي بقوله: النَّخْوة بما تحمله من معاني الحماس، والاعتداد بالنفس والبطولة وحبُّ المغامرة وحماية اللائذ، وصيانة الوفاء والعهد، ترفدها هيئة رائعة ومظهر فخْمٌ- هي أبرز جانب في شخصية العباسي. [8] ولذلك كان مجلس العباسي مجلس إمتاع ومؤانسة، وصفه أحدهم بقوله: الساعات الهانئة التي يخرج فيها الإنسان من دنيا المادة إلى أفق الأدب الواسع، وتطير باللبِّ إلى عالم كله شعر وشعور. [8] توفَّر العباسي لحياة الشِّعر والجمال ، فكان كثير التَّجوال في السُّودان ولا سيَّما في أريافه، وله أصدقاء ومحبُّون، آثرَ حياة الريف على المدينة، وكان شعره لذلك وحْياً للطَّبيعة العذراء، لم تؤثر فيه المدنية ولم تلوثه بأدرانها. [10] قال حسن نجيلة واصفاً حفاوة البدويين بالعباسي:" واستُقبل في دارة الحمراء بالكبابيش ركبُ هذا الشاعر الكبير الذي كان مولعاً بحياة البادية، يقضي فيها شطراً من كلِّ عام متنقلاً بين وديانها وكثبانها، ومضارب البدو الذين أَلِفُوه كلَّ الإلفة؛ فله منهم أصدقاء وأحباب في كلِّ حيٍّ... وفي رحاب البادية ومضاربها ووهادها ونجودها وجمالها الثائر الهادئ قضينا فترة هي من أحبِّ الفترات إلينا، وأنشأ فيها العباسي أروع شعره وأخلده "[4].

وكان حُبُّه للبدويين والبادية صادقاً عميقاً، وتجلَّى واضحاً في شعره الذي ناجى فيه البادية وأحبابه فيها. وقد أورد له حسن نجيلة في حبِّه للبادية وبساطة أهلها وسعادتهم قوله:" ما أشقانا في هذه الحياة! ترى أي سعادة نلقاها لو أن الله أتاح لنا الطمأنينة والرضا كهؤلاء الناس الطيبين السعداء بحياتهم على جفافها!؟ ماذا لو قسم الله لنا حياة آمنة هادئة كهذه؟ وما جدوى هذا الطموح الذي يعذبنا ولا نلقى منه خيراً؟" [3]

ولا يختلف اثنان في شاعرية العباسي وفحولته، فقد جارى الشَّعراء القُدامى وقلَّدهم في معانيهم وأساليبهم وتجاوز هذا التقليد – الذي يُعَدُّ صقلاً لتجربته – إلى الخلق والابتكار والأصالة ، يقول محمد عبد الرحيم في ذلك:" وأنا إذ أقرأ له يُخيل من فرط ما ألمس من مشاركة بينه وبين فحول الشعراء أني أقرأ لشاعر وشاعر مجيد من شعراء القرن الثالث الهجري يوم انصقلت الأساليب الشعرية ويوم صعدت بها صناعة المولدين إلى مستوى كله موسيقا وسحر وفنون. ويُخيل إليَّ أنَّي لا أقرأ عصراً واحداً وإنما أقف أمام عصور شتَّى متعرفاً إليها في ناحية واحدة لا غيرها، هي هذا الجمال الذي نلمس فيه من أثر العاطفة والذوق ما لا نكاد نحفظ مثله للقلب أو نظفر بقريبه للفكر. وما أدري إن كان ذلك مدعاة فخر للأستاذ أو غيره" [12].

ثالثاً: أوجه التشابه بين حياة الشاعرين وتجربتيهما:

قبل الخوض في توضيح ظلال شعر المتنبي التي نلمحها في شعر العباسي لا بدَّ من الوقوف عند بعض وجوه التشابه بين حياة هذين المبدعَين.

أولاً: يشتركان فيه هو غزارة العلم، فكلاهما كان عالماً بالأدب والنقد والغريب والعروض واللهجات، وقد توفَّرا على هذا العلم منذ الصغر[2]، ولا شك أنَّ العلم أحد أهم أدوات الشاعر . ويضاف إلى هذه الخبرة العلمية خبرةٌ واسعة في شؤون الحياة بصفة عامة، ناتجة من كثرة التسفار والتنقل في أرض الله الواسعة؛ مما ينتج عنه معارف اجتماعية وعلاقات متجذرة مع قبائل وشخصيات مهمة في عصر كلٍّ منهما. [5]

ثانياً: كلاهما لم يكن همُّه الفذُّ أن يكون شاعراً مقتدراً فحسب بل كان لهما همَّةٌ عاليةٌ وتطلُّع إلى المعالي ولكلٍّ منهما هدف كان يطمح إليه، نَذَرَ إليه حياته ووظَّف شعره في طلبه والتعبير عنه، أمَّا المتنبي فلا أحد يجهل تطلعه للملك، وطمعه فيه وما لاقاه في سبيل ذلك[6]، وأمَّا العباسي فقد كان في مبدأ أمره يطمح أن يصير ضابطاً عظيماً يسِّخر شجاعته وإمكاناته في خدمة قضايا أمته العربية والإسلامية وذلك عند التحاقه بالمدرسة الحربية بمصر، ثمَّ لمَّا عاق

الزمانُ الظَّالمُ عن تحقيق ذلك عاد لبلاده مستعفياً عن المواصلة في المدرسة الحربية رغم أنه كان من أميز طلابها وحاز فيها على أعلى تقدير أكاديمي[11]، جاء يتطلَّع إلى الحصول على خلافة الطَّريقة السَّمانيَّة بعد والده الأساتذ محمد شريف نور الدَّائم إلَّا أنَّ هذه الأمنية أيضاً لاقى في سبيلها ما لاقى[13]، وإن اختلف النَّاس في أمر انتقال الخلافة إليه. وفي شعره ما يؤكِّد عدم حصوله على ما طلب، فعاش في السُّودان – وهو بلده – غريباً؛ فارق مصر بخيبة وحسرة فاصطدم بأخرى في بلده. يقول عن ذلك:

و ودَّعتُها أمسِ لا عن قِلَى * * * ولم تكن النفسُ بالساليـــــــــةْ[11]

إلى بلدٍ عشت فيـــــه غريبـــاً * * * بعيداً عن الناسِ في ضاحيهْ

أقيم فيها في صدور المَطـــيِّ * * * للمَرْخ تحدى وللصَّافيـــــــهْ

لعلي أصيب بتلك البطـــــاحْ * * * صباي وذاهب أياميـــــــــهْ

ويقول أيضاً :

لاهمَّ إن فاتني ما قد خصصت بـــه * * * غيري من الناس من نُعمى وإيثارِ[11]

فامنن علـــــــيَّ وهبني منك عارفـــة * * * وحطَّ مولاي عنِّي ثقـــــلَ أوزاري

فهذه كلها تُحَدِّثُ عن أنه كان يطلب شيئاً فانتقل هذا الشيء لغيره ومن هذه الإشارات أيضاً قوله :

مَنَّيْتُ نفســـــــــي آمالاً يماطلني * * * بها زماني من حينٍ إلى حين[11]

ويقول :

فإن فاتني قومٌ ولم أكُ دونهم * * * فذاك قضاءٌ ليس عنه من بـــــدِّ. [11]

وما تركت لي النائبات بمرِّها * * * أخاً غير مطويِّ الضُّلوع على حقدِ.

وهكذا لم يتحقق للعباسي ولا للمتنبي من قبله ما كانا يصبوانِ إليه.

ثالثاً: اعتماداً على ما سبق فإنَّ ممَّا يجمع بين الشاعرين أيضاً ما لاقياه من ظلم وعداوات قابلاها بتحدٍّ عظيم وعالجاها في شعريهما، كلٌّ بطريقته الخاصة. فلا يخفى على أحدٍ ما لاقاه المتنبي من عداوات وبُغضٍ وحَسَدٍ من كثير من معاصريه شعراءٍ وعلماءٍ– حسدوه على مكانته الشعرية وقربه من سيف الدولة؛ حتَّى أخرجوه من ذلك البلاط

مغاضباً، قاصداً كافوراً بمصر؛ لعله يشفي تلك الجراحات، غير أنَّه ازدادت خيبته هناك لِمَا صادف من تضييق وحرمان جعلاه ينأى عن مصر وفي الحلق غُصَّة لم تفارقْه حتى قُتِل غِيْلةً. وقد سجَّل ذلك في أشعاره كثيراً، من نحو قوله:

وما ليلٌ بأطولَ من نهارٍ * يظلُّ بلحظ حسَّادي مشوبا**[9]

وما موتٌ بأبغضَ من حياة * أرى لهم معي فيها نصيبا**

وأمَّا العباسي فقد ظَلَمَه بعضُ زملائه وأستاذته في المدرسة الحربية وكانوا سبباً في مفارقته إيَّاها؛ لأنَّه علم أنَّ تميُّزه العلمي وتفوقه الأكاديمي لن يشفعا له في التَّرقِّي، فقد ذكر العباسي أنَّه لمَّا استعفى عن المدرسة الحربية كان ترتيبه الأكاديميُّ الأولَ من بين زملائه، لكنَّه علم أنَّ الطالب السوداني يترقَّى بالأقدمية، لا بالتميُّز الأكاديمي كما هو الحال بالنسبة لزملائهم المصريين في المدرسة نفسها؛ فالمصري يترقَّى بدرجته العلمية[11]، فنجده يقول عن هؤلاء الذين تسببوا في مفارقته المدرسةَ الحربيةَ:

لولاهم ما اطَّرحتُ السيفَ تعرِفُه * * * كفِّي، ولا رضيتْ من بَعده القلما[11]

سيفٌ تمنَّيتُ أن ألقى العدوَّ بـــه * * * تحت العجاجة يوم الـــــروع منتقما

ولستُ إن فاتني حظِّـــي بمبتئسٍ * * * لعلَّ في العُمُرِ الباقـــــــــي لنا قِسما.

رابعاً: يشتركان أيضاً في الاتصال بمصرَ وتعليق الآمال بها في تحقيق الطُّموح، لكن من أغرب المصادفات أنَّ كُلاًّ منهما عاد من مصرَ خاليَ الوِفاض فانقلب المتنبي هاجياً ذاماً بعد أن كان مادحاً، وظلَّ العباسيُّ وفيّاً لمصر، باكياً على أيامه بها، ممجداً لها طوال حياته.

خامساً: يشترك العباسي مع المتنبي في تلك النخوة والرجولة، والنفس الثائرة العظيمة التي تأبى الضيم، وترفض القيد، وتسخَرُ من الجبناء الضِّعاف، وتذمُّ الزمان الجائر وأهله، فالمتنبي لما ضويق في بلاط سيف الدولة غادره إلى مصر، وهو يقول:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا *** ألا تفارقهـــــم فالراحلـــــون هُمُ. (9)

شرُّ البلاد مكانٌ لا صديق به *** وشرُّ ما يكسب الإنسان ما يَصِمُ

وشرُّ ما قنصته راحتي قَنَصٌ *** شُهبُ البـــزاة سواءٌ فيـــه والرَّخَمُ

وما يؤيّد ثورتهما على الأعداء والسخرية منهم وتحديهم والثورة عليهم قول المتنبي:

سأطلب حقي بالقنا ومشائح * * * كأنهم من طول ما التَثَمُوا مُرْدُ(9)

أذم إلى هذا الزمان أهيلـــــــه * * * فأعلمهم خدمٌ وأحزمهم وغـــــدُ

وأكرمهم كلبٌ وأبصـــــرهم عمٍ * * * وأسهدهـــــم فهدٌ وأشجعهم قردُ

وقال العباسي :

سأصفح عن هذا الزمان وما جنى * * * متـــــــى ظفرت كفاي منه بماجد(11)

كفى بذُباب السيف خِلاً بأنـــــــه * * * لدى الروع أصفى من خليل مساعد

هو البرء من داء النفوس وربمـــــــا * * * يسلُّ بحـــديه سخيمة حـــاقـد

ويجدر بالحـــــــرِّ الكريم ادخارُه * * * لإجلالِ ذي ودٍّ وإذلال حـــــــاسد

ويحزنني من معشري أن تفـــــرَّقت * * * بهم سبلٌ أرضت هـــــــوى كل قائد

وقد جهلوا معنى الحيـــــاة وإنهم * * * غدوا غرضاً يرمـــــــى وصيداً لصائد

فمن مكثرٍ دعوى الزهادة خادعاً * * * وكـــــــم من دليـــل أنه غير زاهد

ومن واجدٍ حظاً وقد عدم النهى * * * ومن ذي نهى لكنـــــــــه غير واجد

ومن والجٍ للمجد من غير بابه * * * ومن قائـــــــم يسعـــــى بهمة قاعدِ

هذه المقدمة توضّح بجلاءٍ أنَّ ما يرِد هنا من نماذج من شعر العباسي فيها روح شعر المتنبي – لا يجزم الباحثان أنَّ العباسي مقلدٌ فيها تقليداً محضاً، فلا بدَّ لتشابه التجربتين من أن يلقيَ بظلاله على شاعرية العباسي ويوحيَ إليه بعض الشيء، ولكنَّ وقوفَ العباسي على دواوين الشعراء السابقين له – ومنهم المتنبي – بلا شكٍّ يجلعه يتَّكئ عليه ولا يستطيع أن ينعتق منه تمام الانعتاق، وإن اجتهد .

رابعاً: نماذج تأثُّر العباسي بشعر المتنبي:

وفيما يلي يورد الباحثان النماذج التي تمثِّل ظلال شعر المتنبي في ديوان محمد سعيد العباسي وهذه النماذج يمكن النظر إليها من ناحيتين:

التشابه في المعاني والأغراض:

وذلك أن يطرق العباسي المعاني التي كان قد طرقها المتنبي من قبل، والعباسي هنا لا يعدُّ معتمداً على المتنبي كل الاعتماد، فقد سبق أن اتضح شدَّة التشابه بين تجربته وبين تجربة المتنبي وبين شخصيتيهما كذلك. ومن أشعارهما المتشابهة في المضمون قول العباسي:

أقصرتُ مُذْ عاد الزمانُ فأقصرا * * * وغفرتُ لما جاءني مستغفرا (11)

فإن استغفار الزمان هذا للعباسي يشبه إلى حدٍ كبير توبة الزمان التي جاءت في قول المتنبي:

حالاً متى علِمَ ابنُ منصورٍ بها * * * جاء الزمانُ إليَّ منها تائبا[9]

فالبيتان يصوِّران الزمان في صورة جانٍ تعدَّى على الشاعرين لكنَّه جاء تائباً عن هذه الجناية واستغفر لهما، وكلاهما هنا استخدم الاستعارة المكنية القائمة على تشخيص الزمان في صورة حيَّة. ومن تشخيص الزمان في شعر المتنبي والعباسي أن يجعلا له أذناً تصغي لأصوات المجد وكلما كانت المآثر والمفاخر والأخلاق والإنجازات العظيمة بالغة الأثر – تركت في مسمع الزمان دويّاً وجَلَبةً، يقول المتنبي:

وتركُكَ في الدنيا دويّاً كأنَّما * تداول سمع المرءِ أنمله العشْرُ** (9)

فجاء العباسي فأتى بالمعنى نفسه وذلك في رثائه لحامد محمد علي، فقال:

علم الله أنَّ هذي السجايا * فيه والنَّاس من قصيٍّ ودانِ**(11)

تركتْ في مسمع الدنيا دويّاً * كدويِّ الأذان فـــــي الآذانِ**

وكذلك يظهر الزمان عندهما – ممثلاً في العُمُر – في صورة ثوب ويدعو الشاعر لممدوحة بأنَّ يظل هذا الثوب جديداً متجدداً، من ذلك قول العباسي في القصيدة التي هنَّأ بها الشاعر أحمد شوقي بتكريمه وتلقيبه بأمير الشعراء:

واستقبِلِ العمرَ لا تعدوك جدَّتُه * تُبلي بها جدَّة الأيام والحِقَبِ**[11]

فهذا التعبير كأنَّه أخذه من قول المتنبي وهو يهنئ سيف الدولة بعيد الأضحى:

ولا زالت الأيام لبسك بعده * تسلِّم مخروقاً وتُعْطَى مجدَّداً**[9]

والزمان عندهما جانٍ يستحقُّ أن يلام على جنايته؛ فقد قصَّر بهما عن تحقيق الغايات السامية؛ لذلك فالزمان هو الملوم لا الشاعر، قال في ذلك العباسي:

لا تلمني أخي فما الذنبُ إلا * لزماني ولُمْ عوادي الزمان.** [11]

فهذا كأنه مأخوذ من قول المتنبي:

لُمِ الليالي التي أخنت على جدتي * برقَّة الحال واعذرني ولا تلُمِ**[9]

وقال العباسي واصفاً الشيبَ :

واليوم مـذْ جذبت عنِّـــــي أعنَّتها * هذي الظباء وولَّت وجهها دوني** [11]

وعارضَ العارضين الشيبُ قلت له * أهلاً بمن رجحت فيه موازيني**

فانظر إلى حديثه عن الشيب ثمَّ قارنه بقول المتنبي :

منًى كنَّ لي أنَّ البياض خضابُ * فيخفـــى بتبييض القـــرون شبابُ**[9]

ليالي عند البيض فـــــوداي فتنةٌ * وفخر وذاك الفخر عندي عـــــابُ**

فكيف أذم اليوم ما كنـــت أشتهـي * وأدعو بمـا أشكوه حيـــن أجـــابُ؟**

جلا اللون عن لونٍ هدى كل مسلكٍ * كما انجاب عن ضوء النَّهار ضبابُ**

ألا ترى هذه النظرة المغايرة للشيب والاحتفاء به، على خلاف ما ينظر إليه الآخرون؟ فالعباسي كأنَّما نظر إلى هذا في شعر المتنبي – كما ترى – لكنَّه يأبى ألا أنْ يصبغه بصبغته هو، ويصوغه بأسلوبه الخاص، فلا يأخذ الألفاظ ولا الأوزان، وإن كان المعنى هو المعنى، وقد أبدع في التعبير عن الشيب ب (مَن) التي هي للعاقل! ومن المواضع

التي يبدو فيها الاتِّكاء على معاني المتنبي مع إلباسها ثوب العباسي وتطريزها بطرازه، حتى إنَّها لتخفى على كثيرين قوله وقد أدركه العيدُ بمَليط :

وأنت يا عيدُ ليت اللهَ أبدلني * * * منـــــــــك الغداة بعوَّاد وأعـــواد[11]

مالي وللعيد والدنيا وبهجتها * * * وقد مضى أمسِ أندادي وأتـــرابي

والمتنبي أبياته في هذا المعنى مشهورة محفوظة :

عيدٌ بأيَّةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ * * * بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ[9]

أما الأحبة فالبيداء دونهم * * * فليت دونـــــك بيدٌ دونـــها بيدُ

فكلاهما لا يرى للعيد طعماً ولا قيمةً، فالعباسي يتمنى أن يبدله الله بالعيد الذي لا يلقى فيه أحبابه سفراً وابتعاداً، وأما المتنبي فتمنى أن تحول البيد بينه وبين العيد؛ لأنه لن يلقى فيه أحبته. وقد توافقا في هذه المعاني إلى حدٍّ يشير إلى أنَّ أحدهما تأثَّر بالآخر. ومن أشعار العباسي التي يمكن أن تعدَّ ظلالاً لشعر المتنبي قول العباسي :

باتت تبالغ في عذلي وتفنيـــــــدي * * * وتقتضيني عهـــــــود الخرَّد الغِيدِ[11]

وقد نضوتُ الصِّبا عنِّي فما أنا في * * * إسار سُعدى ولا أجفانها السُّود

سئمت من شِرعة الحبِّ اثنتين هما * * * هجـــرُ الدلال وإخلاف المواعيد

ولا تعذليني فإنِّي اليوم منصرِفٌ * * * يـــــــــا هذه لهوى المَهرية العُود

لم يبقَ غيرُ السُّرى مما تُسَرُّ به * * * نفسي وغيرُ ثياب العيد من عِيد

المدنياتي من رهطي ومن نفري * * * والمبعداتي من أسري وتقييدي

أثرتها وهي بالخرطـــوم فانتبذت * * * تكاد تقذف جلمـــــوداً بجلمود

تؤم تلقاء من نهوى وكم قطعت * * * بنا بطاحاً وكم جابت لصيخود

نجدٌ يرفعنـــــــــا آلٌ ويخفضنا * * * آلٌ وتلفظنـــــا بيدٌ إلـــى بيد

فإنَّك إن تقف عند هذه الأبيات تحسُّ إحساساً عميقاً بصلة الرَّحم التي بينها وبين شعر أبي الطيب المتنبي، وإن كنت في بعض الأحيان لا تستطيع أن تضع أصبعك على شبهها في شعر المتنبي، ولكن انظر إلى قوله:

لا أبغض العيس لكني وقيتُ بها * * * قلبي من الحزن أو جسمي من السقم[9]

طَردتُ من مصر أيديها بأرجلها * * * حتى مرقت بنـــــا من حُوْش والعَلَمِ

تبري لهنَّ نعـــــــــام الدوِّ مسرجةً * * * تعارض الجُدُل بالمرخـــــــــاة باللُّجُم

وقوله المتنبي أيضاً :

ألا كلُّ ماشية الخَيْزَلَـــــى * * * فدًى كلِّ ماشيـــــة الهَيْدَبَى [9]

وكل نجـــــــــاةٍ نجاويـــة * * * خنوف وما بي حسن المشي

ولكنهن جـبال الحيـــــاة * * * وكيدُ العداة وميـــط الأذى

ضربت بها التيه ضرب القِما * * * رِ إمَّـــــــا لهذا وإمَّا لذا

فالعباسي ترك هوى سُعدى وأجفانها السود، وسئم هجرها ودلالها، وانصرف لهوى المَهرية القود – وهي الناقة – وذلك لأنَّها مُدنيته من رهطه ونفره ومُبعدته عن أَسْرِه وتقييده، والمتنبي يبالغ فيجعل المحبوبة فداءً للناقة، ومن هنا تجد العباسي والمتنبي كثيراً ما يقللان من شأن الحبِّ والمحبوبة؛ لينصرف همُّهُمَا لما يطلبانِ من غايات أسمى. وقد اشتركا أيضاً في وصف سيرورة شعريهما، وأنَّه يبلغ الآفاق، ويأسر القلوب، ويأخذ بالألباب، دون أدنى مجهود منهما في إذاعته ونشره بين الناس، ويبدو التشابه بينهما في تشخيص الشعر وإبرازه في صورة محسوسة؛ فهذه الشُّرُدُ من القوافي تسافر وحدها وتجوب الفيافي والبلاد. يقول العباسي:

وكـــــــم زارَ بي شرقَ البلاد وغربَها * * * بلا سفرٍ ينضي الرِّكاب ولا قصْدِ [11]

شواردُ مـــــــا سايرْتُها بتُنُوفـــــة * * * ولا راعها كفِّـــــي بسوط ولا قيد

من اللائي كم أضحت هوى كلِّ مسمعٍ * * * وأعذب في الأفواه من بارد الشهد

ويقول المتنبي :

وعندي لك الشُّرُدُ السَّائـــــرا * * * تُ لا يختصِصْنَ من الأرضِ دارا [9]

قَـــوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْولي * * * وثَبْنَ الجبـــــــالَ وخُضْنَ البِحارا

وقريب من هذا أيضاً قوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي * وأسمعت كلماتي من به صممُ**[9]

أنام ملء جفوني عن شواردها * ويسهر الخلق جرَّاها ويختصموا**

أليس ذاك من هذا ؟! والعباسي في تأثره بشعر المتنبي لا يضع الحافر على الحافر – كما تقدَّم – ولكنه يتصرف في المعاني ويبرزها بأسلوبه الخاص، كما في قوله:

ولستُ لائم أقوامٍ وقد جبنوا * فإنَّ أيسرَ ما لاقيتُ ما يودي**[11]

ولا شكَّ أنَّه قد نظر في هذا المعنى لقول المتنبي:

أحيا وأيسرُ ما لاقيتُ ما قتلا * والبينُ جار على ضعفي وما عدَلا**[9]

التشابه من حيث الألفاظ والتراكيب:

ولننظر هنا إلى العباسي يتحدث عن بعض أعدائه، يقول :

مالي للعاجـــــز يَطْ * * * وِي عن حشًى تضرَّمـــــا [11]

ومن يرى التنكيلَ بي * * * فخـــــــراً لـــــه ومغنمـــــا

أخطأتُ في التعبير إذْ * * * قلتُ بِمَنْ والحَـــــــقُّ (ما)

أليست هذه إتكاءةً واضحةً على قول المتنبي عن أعدائه:

ولي بكلِّ مكانٍ منهم خِلَقٌ * * * تخطئ إذا جئتَ في استفهامهم بمَنِ [9]

فالاشتراك هنا من جهة الألفاظ؛ حيث عبَّر كلٌّ منهما عن عدوِّه بـ (ما) التي لغير العاقل؛ استخفافاً وإزراءً به، فهو لا يستحق عندهما أنْ يُعبَّر عنه بـ (مَنْ). وأحياناً نجد العباسي يأخذ من شعر المتنبي بعض ألفاظه وقوافيه، يقول :

خذوها بنو الطِّليان بكراً فإنها * * * لعمـــــــركمو في بابها الفتكةُ البكرُ [11]

فلعلَّه اقتباس وتأثُّر بقول المتنبي:

ولا تحسبنَّ المجد زِقّاً وقَيْـــــــنةً * * * فما المجدُ إلا السيف والفتكةُ البكرُ [9]

ومن ذلك قول العباسي عن ساسة البلاد في زمانه :

جار الزمان فجئنا نستجير بهم * * * من الخطوب فكانوا الخصمَ والحكما [11]

فالتعبير بهذه الألفاظ(الخصم والحكم) قد سبق إليه المتنبي في قوله:

يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي * * * فيك الخصام وأنت الخصمُ والحكمُ[9]

ومن نماذج هذا التأثر بالتراكيب والجمل التي استخدمها المتنبي نجد قول العباسي:

يا حبَّذا وادٍ نزلتُ وحبَّذا * إبداع من ذرأ الوجود ومن برى** [11]

فهذ التركيب نجده عند المتنبي في مثل قوله:

يا حبَّذا المتحملون وحبَّذا * وادٍ لثمتُ به الغزالة كاعبا**[9]

ومما يؤكد قضية التأثر في مثل هذه النماذج الاتحاد في الوزن أيضاً؛ فالقصيدتان من بحر الكامل. ومن التراكيب التي كثر استخدامها لدى المتنبي نعتُ الممدوح بصفة والتأكيد على أنَّ هذه الصفة في آبائه وأجداده، من مثل قوله عن أبي عبيد الله محمد بن عبد الله القاضي الأنطاكي:

العارض الهتِن ابن العارض الهتِنِ ابـ * ـنِ العارض الهتن ابن العارض الهتن**[9]

فالتفت العباسي إلى مثل هذه التراكيب فقال عن والده:

السيد السند ابن السيد السند الزْ * راقي سماء فخار عزَّ مرقاها**[11]

وقريب من هذا أيضاً ذكر اسم الممدوح أو المرثي ولقبه واسم والده وأحياناً اسم جدِّه في تناسق تامٍ مع وزن الشعر وموسيقاه، وهذا الأمر كثير الورود في شعر المتنبي، كقوله عن علي بن منصور الحاجب:

في رتبة حجب الورى عن نيلها * وعلا فسمَّوه عليَّ الحاجبا**[9]

وقوله عن بدر بن عمار:

إنما بدر بن عمَّار سحابٌ * هطِلٌ فيه ثوابٌ وعقابُ**[9]

وذهب أكثر من ذلك فقال في مدح بدرٍ أيضاً:

حَدَقُ الحسانِ من الغواني هِجْنَ لي * يوم الفراقِ صبابـــــةً وغليلا**[9]

حَدَقٌ يذمُّ من القواتـــــلِ غيـــــــرَه * بدرُ بنُ عمَّارِ بنِ إسماعيلا**

فسلك العباسي هذا المسلك من ذكر أسماء الممدوحين والمرثيين وأسماء آبائهم، يقول وقد أنزل رحله عند صديقه نصر بن شدَّاد في مليط:

وضعت رحلي منها بالكرامة في * دار ابن بجدتها نصْر بن شدَّاد**[11]

فلله هذا التشابه حتى في أوزان الأسماء! فنَصْرٌ وبَدْرٌ من وزن، وشدَّاد وعمَّار من وزن! ويقول العباسي عن والده:

هو الشريف ابن نور الدائم ابن أبي الـ * ـهُدى الذي منها ما تمناها**[11]

ويقول في رثاء صديقه حامد بن عليٍّ:

نم قريراً يا حامد بن عليٍّ * في جوار المهيمن الديَّان**[11]

وهناك أساليب في اللغة هي لهجات لبعض قبائل العرب قديماً، وهي غير مشهورة استخدم بعضها المتنبي في شعره، كحذف النون من حرف الجر (من) إذا وليه معرف بـ (ال) فقال :

ولديه مِلعقيانِ والأدبِ المُفادِ * * * ومِلحياة ومِلمماتِ مَناهلُ [9] .

أي: نلت العقيان، ومن الحياة، ومن الممات، فاتبع المتنبي هذه اللهجة من لهجات العرب، واختارها العباسيُّ أيضاً في شعره حيث قال :

ألبسوني مِلعطفِ تاجاً لفودَيَّ * * * أُباهي به وطَـــــوقاً لجِيدي [11]

أي: من العطف. فحذف النون من حرف الجر (من) وحذف همزة الوصل من (ال) التعريفية. تلك كانت نماذج من أشعار محمد سعيد العباسي التي تمثِّل ظلالاً لشعر أبي الطيب المتنبي، وهي آيةٌ شاهدةٌ على أنَّ العباسي كان شديد الإعجاب بالمتنبي وبشعره، وقد ذكره في أشعاره في أكثر من موضع، كقوله:

لو كنتُ كابن الحسين اليوم جئتُ لكم* بما أفاء على بدرِ بن عمَّار**[11]

وابن الحسين هو أحمد بن الحسين المتنبي، وذكره في موضع آخر حيث قال:

فيا أحمد الخير نلتَ المنى * ووقِّيتَ مـــــن حظـــــــيَ العاثرِ** [11]

فهذا يدل على إعجابه به وتأثره به.

الخاتمة :

من خلال التطواف بين ديواني المتنبي والعباسي وتلمس أوجه التشابه بين شخصيتيهما وشعريهما أوصلت الدراسةُ للنتائج التالية :

1. التشابه بين حياة كلٍّ منهما من حيث ما لاقياه من حرمان ومن عناء وخيبة آمال رغم ما يمتلكان من مؤهلات عظيمة.
2. التقارب بين المعاني والأغراض التي طرقاها نسبة لتشابه تجربتيهما الشخصية.
3. استعارة العباسي لكثير من ألفاظ المتنبي الشعرية وتراكيبه وقوافيه.
4. أصالة العباسي في أخذه عن المتنبي لفظاً ومعنى وذلك من خلال تصرفه فيما أخذه وصياغته إياه بأسلوبه الخاص.
5. إعجاب العباسي بالمتنبي وذكره لاسمه في أكثر من موضع في ديوانه.

المصادر والمراجع:

1. أحمد عبد الله سامي،(بلا تاريخ،) الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي، دار الإرشاد، الخرطوم، ص44،46.
2. الأنباري(أبو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عبيدالله) (1985م)، نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأدرن، ط3، ص219،220،221.
3. حسن نجيلة،(2005م) ذكرياتي في البادية، مطبعة أكاديمية العلوم الطبية، الخرطوم، ط5، ص126،127.

4. حسن نجيلة(1994م)، ملامح من المجتمع السوداني، دار الخرطوم للطباعة والنشر، الخرطوم، ط1، ص308،307،305.

5. حليم اليازجي(1985م) ،السودان والحركة الأدبية، ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، بلا ط، ص504.

6. ابن خلكان(أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد)،(بلا تاريخ)، وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص123،122،121.

7. الذهبي(شمس الدين أبو عبدالله محد بن أحمد بن عثمان)(2006م)، سير أعلام النبلاء ، دار الحديث، القاهرة،256.

8. عبد المجيد عابدين(1972،) في الشعر السوداني ، دار الفكر، بيروت، ط2، ص4،5.

9. المتنبي أحمد بن الحسين، (بلا تاريخ)، ديوان أبي الطيب بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، دار المعرفة ، بيروت، ص.

10. محجوب عمر باشري،(1991م) رواد الفكر السوداني، ، دار الجيل، بيروت، ط1، ص316،314.

11. محمد سعيد العباسي،(2010م)، ديوان العباسي، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الأولى، ص 188،.

12. محمد عبدالرحيم، (بلا تاريخ)، نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع، شركة الطبع والنشر، الخرطوم، ص135.

13. محمد مصطفى هدَّارة، (1972م)، تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، ، دار الثقافة، بيروت، ص116،115.

14. ابن منظور(محمد بن مكرم بن علي)(1984م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق:روحية النحاس، وآخران، دار الفكر، دمشق، ص51.

15. ياقوت الحموي(1993م)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ص302.